متاحفنا الأثرية

للأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

الأمين المساعد بدار الآثار

نشأة المتاحف الأثرية

ليس من شك فى أن المتاحف بصورتها الحالية ثمرة من ثمار المدنية الحديثة لم يعرفها الفراعنة ولا اليونان ولا الفرس ولا الرومان، ولا عرفها أجدادنا من المسلمين، على أنه إن كان هؤلاء الأسلاف جميعا لم يهتدوا اليها، فان طبيعة التأثر بالجمال وغرائز الاقتناء والملك وحب الاستطلاع، قد دفعت بهم الى جمع التحف الجميلة واقتناء الأشياء الغريبة، سواء ما كان منها من صنع الطبيعة أو الانسان تلبية الملك الغرائز والميول الفطرية بذلك فوضعوا — من غير قصد — نواة المتاحف، ونمت تلك النواة، وتفتحت عن نبت طالت على مر الزمن سيقانه وكثرت بتعل التطور فروعه وأغصانه، وأينعت فى أيامنا هذه أوراقه، ونضجت ثماره.

وخطا الأوربيون الى الأمام خطوة جريئة فى هذا الصدد عند ما بدأوا يعنون بمخلفات الماضى لقدمها فحسب، وأخذوا يجمعون هذا التراث بتأثير ذلك الدافع وحده بعد أن كانت الغرائز والأميال الفطرية هى التى تحفز الى جمع الأشياء الجميلة والغريبة قديمها وحديثها على السواء، وقد وقع هذا التغيير الجوهرى فى عصر النهضة الأوروبية، ذلك العصر الذى استيقظ فيه العقل الأوربى، ونظر الى تراث اليونان والرومان نظرة اعجاب امتزجت فيها عوامل التقديس التى اكتسبتها هذه الآثار، وبحكم قدمها مع عوامل التقدير، لأنها من صنع أولئك الذين اتخذهم له قادة فى حياته الجديدة، يسير على هديهم وينسج على منوالهم، وركبت الناس حمى اقتناء كل ماهو قديم، وتسابق الملوك والأمراء والأغنياء فى هذا الميدان، فجمعوا كل ما وصلت اليه أيديهم من تراث الأولين، وزينوا بما جمعوه قصورهم، ورتبوه فيها وفق أذواقهم، وكان التمتع برؤية هذه المجموعات قاصرا فى أول الأمر على أصحابها وأصدقائهم والمتصلين بهم، ولكن الانجليز توسعوا فى ذلك، فأباحوا التفرج عليها للشعب وكان ذلك فى مدينة اكسفورد فى القرن السابع عشر، فسجلوا بذلك لأنفسهم فضل السبق فى إنشاء المتاحف بمعناها الحديث.

وجاءت الخطوة التالية فى سبيل تكوين المتاحف فى القرن الثامن عشر فى عهد الثورة الفرنسية عندما هدمت الحواجز التى كانت تفصل بين طبقات المجتمع، وأصبحت قصور الأشراف بما حوته من تحف ملكا للشعب، وانقلب قصر اللوفر بما فيه من تحف غالية جمعها ملوك فرنسا فى العصور المختلفة الى متحف أدبى عظيم، وولد علم الآثار فى ذلك الوقت، وأخذ العلماء الغربيون يعنون ما بقى من آثار الماضى من عمائر وتحف، وأخذوا يؤمون المتاحف للقيام بهذه الدراسة، بينما كان الشعب يرتادها للتفرج على ما فيها.

وأخذت مصر بأسباب الحضارة الغربية منذ أن غزاها نابليون ، ونقلها بغزوته هذه من ظلمات العصور الوسطى إلى نور العصور الحديثة ، وازدادت صلتنا بأوربا ، واتخذناها إماما لنا نقتدى به فى شئون حياتنا ، فانشأنا المتاحف على غرار متاحفها ، وكان أولها ظهورا المتحف المصرى الذى أسس فى عهد المغفور له محمد على باشا سنة ١٨٣٥ ، ثم دار الآثار العربية التى أمر بإنشائها الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٩ ، ولكنها لم تخرج إلى حيز الوجود إلا سنة ١٨٨١ ، ثم متحف بلدية الاسكندرية الذى افتتح رسميا سنة ١٨٩٥ ، ثم المتحف القبطى الذى بدأت المحاولات الأولى لتأسيسه فى سنة ١٨٩٨ وافتتحت أولى قاعاته سنة ١٩١٠

وفى الحق أننا دفعنا إلى إنشاء هذه المتاحف دفعا ، وأغلب الظن أن استجابتنا لهؤلاء الذين دفعونا إلى إنشائها ، إنما كان مبعثها الكلف بالمظاهر ، والشغف بالتقليد ، والرغبة الصادقة فى أن نساير أوربا فى كل شىء وكان طبيعيا أن تسير هذه المتاحف وفق السياسة التى كانت تسير عليها متاحف أوروبا فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، أى أنها كانت أماكن للبحث والدراسة للعلماء والطلبة ومسلاة لغيرهما من طبقات الأمة . ولكن شتان اليوم بين متاحفنا ومعظم متاحف الغرب ، فقد تطورت الأخيرة تطورا عظيما ، أضافت به إلى رسالتها العلمية القديمة رسالة اجتماعية خطيرة أصبحت بها من المقومات الأساسية لحياة الأمم ، بينما ظلت متاحفنا أمينة للنهج القديم لا تحيد عنه ، تتوجه بالنصيب الأوفى من عنايتها إلى العلماء والباحثين ، ولا ينال الشعب من هذه العناية إلا نصيبا ضئيلا ، بل قل ليس له نصيب ، ولعل ذلك راجع إلى أننا اكتفينا بنقل المتاحف عن غيرنا ولم نعن بعد ذلك بترسم خطاها فى سبيل التطور ، فأخذت تشق طريقها نحو التقدم هناك ، وتوسع دائرة الاستفادة منها لكى تبرر وجودها وتستأهل لما يرصد لها من مال الدولة ، حتى أصبحت ضرورة من ضرورات المجتمع لا غنى للأمة عنها ، أما هنا فقد أسلمناها للجمود ، فعاشت على هامش الحياة المصرية لا يكاد يحس بوجودها إلا النذر اليسير ، ولا يفطن لأهميتها إلا الأقلون ، ولا يذهب إليها الناس — فى الكثير الغالب — إلا مساقون ، وهكذا تخلفنا فى هذه الناحية وسبقتنا فيها كثير من الأمم ، وهى دائبة فى سيرها بخطى واسعة سريعة بينما نحن واقفون حيث كنا منذ نقلنا نظام المتاحف إلى بلادنا ، ولا شك أن الوقت الحاضر الذى اتجهت فيه العناية إلى وضع الأسس السليمة لحياتنا الاجتماعية بعد الحرب ، هو أنسب الأوقات للنظر فيما ينبغى أن تكون عليه متاحفنا الأثرية ، لكى تؤدى رسالتها فى المجتمع على الوجه الأكمل ، فتصبح وسيلة فعالة لتثقيف الشعب ، وتصفية ذوقه ، وصقل مواهبه .

رسالة المتاحف فى المجتمع

ترى ما هى تلك الرسالة التى يمكن للمتاحف الأثرية أن تؤديها للأمة ، وتستحق بأدائها لكل ما يرصد لها من مال الدولة ؟

الواقع أن للمتاحف رسالتان لا رسالة واحدة ، رسالة تؤديها لعامة الشعب ، ورسالة تبلغها للعلماء والطلبة ، وهى إن أحسنت القيام على هاتين الرسالتين أصبحت من غير شك عنصرا فعالا فى ترقية الأمة ولم تعد — كما يخيل للكثيرين — ترفا تصنع بدونه الحياة ، أو تزيدا يمكن الاستغناء عنه .

أما الرسالة الأولى ، فلا يمكن أن تتحقق على وجهها الأكمل إلا إذا آمن المشرفون على المتاحف الأثرية ، بأن فى أعناقهم للمصريين عامة — مهما كان مركزهم الاجتماعى أو نصيبهم من الثقافة — أمانة لا تبرأ منها ذمتهم حتى يؤدونها لهم كاملة غير منقوصة ، هى استخدام ما بين أيديهم من تراث الأجداد فى إيقاظ روح القومية ، وتربية حاسة الجمال ، وليس هناك من شك فى أن المتاحف الأثرية هى خير المعاهد التى يلتقن فيها الشعب تاريخه القومى أو يزداد به علما ، ذلك لأن حياتنا هى فى الواقع استمرار لحياة أسلافنا ، وأن دراسة آثار هذا السلف الكريم من شأنها أن تحكم صلتنا بماضينا ، وتوثق روابطنا الثقافية به ، وتزيدنا إيمانا بعظمته ، وأن إجلال الماضى إنما هو الوسيلة التى يستوحى بها الشعب أبطاله وعظماءه .

وشتان بين تلك الصورة الباهتة التى تصورها لنا كتب التاريخ عن ماضينا المجيد ، وبين الصورة الرائعة التى تجلوها علينا تلك الآثار ، سيما اذا ما خرجت عن صمتها ، وتحدثت إلينا حديثها الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه عن المادة التى صنعت منها واليد التى صنعتها ، والفنان الذى رقشها وزخرفها ، والشخص الذى استعملها ، والموضع الذى استقرت فيه قبل أن ترى الشمس من جديد ، ومن ذا الذى يستطيع أن ينطقها هذا الحديث الشهى إلا أمناء المتاحف الذين فحصوها ودرسوها وانتهوا من هذا الفحص وتلك الدراسة إلى أنها دليل قوى لا يتسرب إليه الشك ، على أننا بلغنا من الحضارة المادية درجة لم تسم إليها معظم الأمم فى الماضى ، ورفعنا لواء العلم عاليا فى العصور القديمة ، ورفعناه كذلك عاليا فى العصور الوسطى ، فأرسلنا النور إلى أرجاء العالم يبدد ظلمات الجهل وينير سبل الحياة ، وكان مركزنا من هذه الأمم التى تزعم خطاها اليوم ، ونسير على هديها كمركزهم منا فى الوقت الحاضر ، بمثل هذا الحديث ينبغى أن يتحدث أمناء المتاحف إلى الأمة فى محاضرات مختلفة تتخذ مادتها مما بين أيديهم من تراث الأولين ، وتدور موضوعاتها حول إذكاء روح الوطنية ، وبعث العزة القومية فى النفوس .

والواقع أننا فى أمس الحاجة إلى تهذيب أذواقنا ، وإدراك قيمة الجمال فى حياتنا ، والإيمان بأن تربية حاسة فينا أمر لا مناص لنا منه إن شئنا أن نسمو فوق مستوى الحيوانية ، ولا شك أن رؤية التحف الجميلة ، وإمعان النظر فيها ، والوقوف على سر جمالها ، هى أحسن وسائل هذه التربية ، لأن التأمل فى الجمال يرهف الحس ، ويعنى الذوق ، ويذكى فى النفس حب الجمال ؛ وإذا ما تكون الذوق السليم ، وارتفع لدى الشعب مستواه ، ومرن الناس على تقدير الفن الجميل ، ارتفعت الأمة وتقدمت إلى الأمام خطوات ، وارتقت فى حياتها الخاصة وفى حياتها العامة ، لا يقبل أفرادها إلا على استعمال ما هو جميل ، ولا ترتاح نفوسهم إلا إلى رؤية الجمال ماثلا فى كل ما يحيط بهم ، تؤذيهم الفوضى فى الحياة المادية وفى الحياة المعنوية ، ويؤلمهم عدم التوازن والانسجام بين الأشياء فى داخل منازلهم وخارجها .

أما الرسالة الثانية التى تؤديها المتاحف الأثرية للباحثين فتقوم على تمكين هؤلاء — مهما اختلفت جنسياتهم ، وتباينت لغاتهم — من دراسة ما خلفه أسلافنا من آثار مادية ، ومعاونتهم على ذلك بكل وسيلة ميسورة ، ثم نشر أبحاثهم ليتم بها النفع فتزداد ثروة المعارف والعلوم وتتسع بذلك آفاق العقول .

هل أدت متاحفنا الأثرية هاتين الرسالتين ؟

الواقع أنها أحسنت أداء رسالتها الخاصة ، وكان تفانيها المادى والمعنوى فى هذا السبيل موضع التقدير والإعجاب ، فيسرت على العلماء والباحثين سبل العمل ، ولم تحل دون أى باحث — مهما كانت جنسيته أو اللغة التى يكتب بها — وما يريد ، ولم تبخل عليه بكل ما يسهل مهمته ، ونشرت الأبحاث الأثرية على عظم نفقتها وقلة المتفمين بها وتكبدت فى هذا السبيل الاموال الطائلة ، ولم تزن عمليا هذا بميزان الكسب والخسارة ، بل كانت وجهتها خالصة للعلم أو للفن ، ولعل فى قائمة مطبوعات المتحف المصرى ودار الآثار العربية والمتحف القبطى ، خير دليل على صدق هذا القول .

متاحفنا بعد الحرب

على أنه فى الاستطاعة أداء هذه الرسالة فى صورة أقرب الى الكمال مما كانت عليه قبل الحرب اذا ما عملنا على تزويد كل متحف أثرى بمعمل كيميائى صغير به جهاز للاشعة فوق البنفسجية ، لأن تقدم العلوم الكيميائية ، واستخدام الاشعة المذكورة كثيرا ما يعاون على كشف حقيقة ما يقدم للمتاحف من آثار خصوصا فى هذا الوقت الذى أصبح فيه تقليد التحف الأثرية مهنة تدر على محترفيها المال الوفير ، ففى ايران وباريس يحسنون بوجه عام تزييف التحف الاسلامية ، وفى مصر يتقنون تقليد التحف الفرعونية ، وهناك مع الاسف حالات التبس فيها الأمر على بعض المشتغلين فى المتاحف فى مصر وأوربا فاشتروا المزيف

على أنه أصيل . وإذا ما حرصنا على أن يكون فى كل متحف أثرى اخصائيون لاصلاح التحف والمحافظة عليها وإكمال الناقص منها ، وحبذا لو مرنـا بعض خريجى المدارس الصناعية على هذه الأعمال بارشاد من يعرفونها من المصريين والأجانب — وهؤلاء غاية فى القابلية — حتى يحذقون فيخرجون لنا من تلك الانقاض التى خلفتها لنا العصور الخالية تحفا جميلة يتسمون قطعها بعضها الى بعض ويكملوا بمهارتهم ما ينقصها من أجزاء .

ولكى تؤدى المتاحف الأثرية رسالتها العلمية خير الأداء ينبغى أن نخصص فى كل منها قاعات للبحث لا يدخلها الا العلماء والباحثون ، تكون التحف فيها فى متناول اليد ليسهل فحصها ودراستها ، وترتب تلك التحف وفقا لمادتها ، وتنتظم على أساس عصورها حتى يتجلى التطور فى طريقة الصناعة وعناصر الزخرفة ، ويسهل على الباحث الأثرى أو المهتم بالصناعة أو المعنى بتاريخ الفن أن يتتبع هذه الادوار المختلفة وأن يخرج من هذا التتبع بنتائج تزيد فى ثروتنا العلمية . ولا ضير فى هذه الطريقة ولاخوف منها فالذين سيقومون بالفحص والدراسة هم من العلماء والمختصين الذين لا تقل رغبتهم فى المحافظة على هذا التراث الأثرى والعناية به ، عن رغبة أمناء المتاحف وعنايتهم .

ولعل المتحف المصرى هو المتحف الوحيد بين متاحف مصر الأثرية الذى توفرت فيه بعض هذه الأشياء التى ذكرناها ، ولكنها مع ذلك لاتزال فى حاجة الى شيء من عناية أولى الأمر لتؤتى أحسن الثمار .

ولقد ساهمت مصر — كما قدمنا — فى نشر الابحاث الأثرية بأوفى نصيب ، ولكن الاستفادة بهذه الابحاث محصورة فى دائرة ضيقة قاصرة على أولئك الذين يحسنون اللغات الأجنبية ويهتمون بتتبع هذه الأبحاث ، ولا شك أن احترام لغتنا والاعتزاز بقوميتنا والرغبة فى توسيع دائرة الاستفادة من هذه الابحاث القيمة تفرض علينا أن ننشر مع كل مؤلف أجنبى ملخص باللغة العربية يتضمن زبدة ما جاء فى البحث الأجنبى ، وحبذا لو اقترن كل مؤلف عربى بملخص باللغتين الانجليزية أو الفرنسية ليقف العلماء الأجانب على آرائنا فى هذا الميدان .

* * *

أما رسالة المتاحف الى العامة فلم تحظ من عناية القائمين بالأمر الا بنصيب ضئيل ، وفى الحق أنه لظلم بين أن تختص المتاحف بعنايتها أفراد قلائل من الأمة وتتجاهل سواد الشعب الذى تعيش بفضل ما يدفعه من ضرائب ، فمن العدل إذن أن تتوجه اليه بأوفى نصيب من مجهودها ، وأن تكرس لخدمته أكبر ما يمكن من وقتها حتى تشعره بقيمتها وضرورتها فى الحياة .

ولعل أول ما ينبغي أن تتجه العناية اليه هو تنظيم قاعات العرض، بحيث تجذب الالتفات وتغرى على معاودة الزيارة ؛ فتنسق التحف على أساس طرازها ، لا أساس مادتها ؛ فهنا مجموعة تمثل فن الدولة القديمة ، وهناك مجموعة تمثل فن الدولة الحديثة ، وهنا الطراز الطولونى ، وهناك الطراز الفاطمى وهكذا . ولا يعرض منها إلا ما كان كاملا جميلا ، له فى التاريخ الفنى قيمة كبيرة ، فكلما قل المعروض تضاعفت العناية به والالتفات اليه ، ولا ريب فى أن جمال الشيء وأهميته تزداد فى عين الرأى اذا ما عرف جانبا من تاريخه . فلتقرن كل تحفة بوصف لها ، يراعى فيه ألا يكون موجزا إيجازا مخلا ، ولا مطولا تطويلا مملا ، وحبذا لو كان مكتوبا بخط واضح يغرينا جماله على قراءته ، بمثل ذلك لا تسرع السآمة الى نفس الزائر العادى — ومعظمنا هذا الزائر — ولا يضعف فيه الشوق الى مواصلة الزيارة ، على أن الأخذ بهذا الرأى معناه أننا سنستبعد كثيرا مما كان معروضا فى متاحفنا الأثرية قبل الحرب ، وقد لا يروق ذلك لأولئك الذين يرون أن كثرة التحف المعروضة ميزة لنا نفتخر بها على غيرنا من متاحف أوروبا وأمريكا التى لا تملك من تحفنا الأثرية إلا القليل ، ويحمد الله أن المؤمنين بهذا الرأى قلة ، وأن هذا الرأى نفسه لا يستطيع أن يثبت أمام النقد النزيه ، فليس من المنطق فى شيء أن نضحى من أجل هذه الميزة — إن صح أن نعتبرها كذلك — بالغرض السامى الذى نطمح فى الوصول اليه ، هذا فضلا عن أنه فى قاعات البحث متسع لكل ما لا يحسن عرضه على الجمهور .

على أن هذه التحف التى روعيت قواعد الجمال فى تنسيقها تظل قليلة الجدوى ما لم يكشف عن قيمتها بتنظيم محاضرات عامة تلقى فى المتاحف نفسها فى أوقات يستطيع أن يؤمها فيها أكبر عدد ممكن من الشعب ، كأن يكون ذلك فى العطلات الرسمية ، ويدعى لحضورها الهيئات المختلفة ، حكومية كانت أو غير حكومية من الموظفين والعمال ، ويكون حضورها عاما من غير جعل ، حتى يتسابق اليها الناس ، وليس هناك أقل شك فى أن مثل هذه المحاضرات ، إن أحسن إعدادها وكانت موضوعاتها شيقة خفيفة على النفس ، ولغتها واضحة مفهومة ، سيكون لها أبعد الأثر فى تثقيف الشعب وتهذيبه ، فالمصرى بطبعه سريع النجاح إذا ما أحسن توجيهه .

والى جانب هذه المحاضرات ينبغى أن تعنى هذه المتاحف بأمرين ، الأول : إصدار كتيبات تتناول دراسة ما فيها من التحف من نواحيها التاريخية والصناعية والفنية ، وتكون مكتوبة بلغة عربية واضحة سهلة ، ومزدانة بصور كثيرة تحبب الناس فى اقتنائها ورخيصة الثمن ليستطيع أن يشتريها كل فرد ، والثانى : نشر صور ملونة وغير ملونة ، كبيرة وصغيرة عن أجمل ما فى المتاحف من لطائف ، تغرى برخص ثمنها وجمال شكلها الكثيرين على اقتنائها ، فيزينون بها منازلهم ، وعندئذ تصبح كأنها كتاب مفتوح يقرؤه الصغار والكبار ويستمتعون بمشاهدته ، ويملأون أقطار عيونهم بجماله .

ولا يصح أن تقتصر المتاحف على العاصمة بل يجب أن يكون فى كل اقليم متحف محلى يضم بين جوانبه الآثار المكتشفة فى دائرته أو التى تتصل به وتتعلق بأهله فى العصور السابقة . ولا شك أن هذه المتاحف المحلية متى وجدت ستزيد ارتباط السكان باقليمهم وتوثق عرى صلتهم به وتبعث فيهم روح التفاخر بماضيهم وتدفعهم إلى التنافس مع غيرهم من الأقاليم وأغلب الظن أن يتبع هذا التنافس حركة واسعة تحمل كل إقليم على مراجعة تاريخه الماضى والكتابة فيه وعلى بيان مظاهر العظمة فى نواحيه . وأذا ما سارت المتاحف الاقليمية على نفس المنهج الذى رسمناه لمتاحف العاصمة آتت أحسن الثمار للأمة .

ولما كان الانسان بطبيعته يميل الى التغيير والتبديل ولا صبر له على منظر واحد فان متحفا يظل أمينا على نظامه القديم ، محافظا عليه ، من شأنه أن يبعث التبرم والسأم فى نفس زائريه لذلك كان من الواجب على المشرفين على المتاحف أن يعملوا على تغيير نظام العرض بين حين وآخر ، وعلى تعديل طريقة تنسيق التحف ، وأن يقيموا فى أوقات متقاربة معارض مختلفة حتى يبعثوا الحياة فى أرجاء متاحفهم لأن الجمود هو الموت .

هذه الاقتراحات جميعا لن تؤتى ثمارها إذا ماخرجت الى حيز التنفيذ إلا إذا سبقتها ولازمتها دعاية منظمة يقوم بها من يحسن هذا الأمر وله فيه خبرة ، فالدعاية قوة لا يستهان بها فى توجيه الرأى العام عند الجماهير وقلما نجد فرعا من فروع الحياة ليس لها أثر فيه ، لذلك ينبغى أن نستخدم وسائلها الثلاثة : الصحافة والسينما والاذاعة ، فى الدعوة الى المتاحف وأن نستعين بها فى لفت نظر الجمهور اليها وفى تشجيعهم فى زيارتها و إغرائهم على الاهتمام بأمرها .

وبعد فان للمتاحف فى المجتمع أثرا لا سبيل إلى إنكاره ، فهى من أهم الوسائل التى تحقق لنا حياة الكرامة ، وتدفعنا الى الاعتزاز بقوميتنا و إلى احترام أنفسنا ، وتساعدنا على تنمية كفايتنا وا كتشاف ما كمن فى نفوسنا من مزايا . ولقد سبقنا فى الاستفادة منها أمم كثيرة وخطت فى هذا المجال خطوات واسعة ، وقد استوحينا تلك الأمم فى هذا البحث ، ولعل خير مانختمه به هو تلك العبارة القيمة التى جاءت فى تقرير معالى نجيب الهلالى باشا عن التعليم إذ يقول " إنما يبدأ التعلم الحقيق الى المعرفة بعد انتهاء المرحلة المدرسية ، فالتعليم يبدأ بالمدرسة ولكنه لا ينتهى بها ..... " وليس هناك ما يشبع الرى فى النفوس ، ويزيدها بالاطلاع ، ويغريها على الدرس مثل المتاحف على اختلاف أنواعها ، فهى إلى إذكائها روح القومية فى نفوسنا ، وتنميتها حب الجمال ، تثير فينا غريزة حب الاستطلاع فتحملنا على مواصلة البحث ما

محمد عبد العزيز مرزوق

الأمين المساعد بدار الآثار العربية